مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
المجلد 39 العدد:4 (2023):63-81

Damascus university journal for arts and humanities
Vol ..No: ...(2023):63-81

إشكالية القبح في استطيقا الجمال

إبراهيم سليمان الحسين[1]، أ.د. فارس نداف[2]

1- طالب دكتوراه- قسم الفلسفة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق.

2- أستاذ دكتور- قسم الفلسفة- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق.

الملخص:

لا شك أن مشكلة القبح في استطيقا الجمال تعد إحدى أكثر المشكلات أثارة للجدل على مر التاريخ، يفسر هذا ما نراه من آراء متضاربة وأقوال متباينة حول هذه المشكلة، وما تنطوي عليه من غرابة وخروج عن المألوف، ذلك لأنها تناقض التصور الشائع للجمال والذي لا يرى بالقبيح سوى ضداً للجمال، في حين شكل القبح في الواقع جانباً من الحياة وشكلاً أخر للجمال لا مفر من وجوده، فالمتعة الجمالية هي متعة الجميل والقبيح، إذ أن القبيح قد استقر كمقولة من مقولات القيمة الجمالية، فأي انطباع استاطيقى يمكن أن يؤدي إلى متعة يدخل في مجال الجمال، والقبح يؤدي إلى انطباع استاطيقي يمكن أن يكون ممتعاً بدلاً من الانطباع المؤلم الذي يفترض في العادة، الأمر الذي يجعله بذلك لا يختلف في شيء عن الجمال كما الجليل والهزلي والمأسوي، لأن لكل منهم قيمته الاستطيقية الخاصة؛ وكل انطباع استاطيقي بما هو كذلك جميل، فمسار استطيقا الجمال أضحى يبرز أكثر فأكثر جمالية القبح، وذلك عبر تضمين مجال الجمال بنسق من المقولات، فلم تعد دائرة الجمال تقتصر على الشيء الجميل وحده، بل أضحت تشمل جميع القيم الإيجابية والسلبية التي تتشكل من خلالها حياة الإنسان.

الكلمات المفتاحية: القبح- استطيقا- جمال.

تاريخ الايداع: 2022/03/14
تاريخ القبول: 2022/04/27

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

The problem of ugliness in the beauty

Ibrahim Al Hussein[1], Faris Nadaf[2]
1- PH.D. students- department of Philosophy- Faculty of Literature and Humana Arts- Damascus University.
2- Professor- department of Philosophy- Faculty of Literature and Humana Arts- Damascus University.

Abstract:
There is no doubt that the problem of ugliness in the ability of beauty is one of the most controversial problems in history, this explains what we see from conflicting opinions and differing statements about this problem, and the strangeness and out-of-the-ordinary, because it contradicts the common perception of beauty, which is seen only as ugly against beauty, while ugliness is in fact the form of ugliness Part of life and another form of beauty is inevitable. Aesthetic pleasure is the pleasure of the beautiful and the ugly, as the ugly has settled as a saying of aesthetic value. Any discretionary impression can lead to pleasure in the field of beauty, and ugliness leads to a discretionary impression that can be enjoyable instead of the painful impression that is usually assumed, which makes it no different from beauty as venerable, comic and tragic, because each of them has its own discretionary value; Every impression of what is also beautiful, the path of beauty is becoming more and more evident in the beauty of ugliness, by including the field of beauty in a style of sayings, the circle of beauty is no longer limited to the beautiful thing alone, but includes all the positive and negative values through which human life is formed.

Keywords: Ugliness - Aesthetic -Beauty.

Received: 14/03/2022
Accepted: 27/04/2022

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a
CC BY- NC-SA

المقدمة:

أضحت دراسة مفهوم القبح جزءاً لا مفر منه في علم الجمال، حيث يشكل القبح جانباً من الحياة وشكلاً أخر للجمال لا مفر من وجوده، وتطرح مشكلة القبح في نظرية الاستطيقا عقبات ومشكلات ضخمة تتمثل في العديد من الجوانب، منها ما الذي نقصده بالقبح، وما هي طبيعته؟ وما علاقته بالجمال؟ وما هي طبيعة العلاقة بين القبح والقيم الأخلاقية؟ وهل يرتبط القبح بخصائص أخلاقية أم يجب الفصل بين القبح والأخلاق؟

كما تتمثل هذه الجوانب بالعلاقة القائمة بين القبح والفن، فهل للقبح مكان في الفن؟ وأن صح هذا الأمر فكيف يمكن تفسير ذلك أذا ما كان الهدف الوحيد الذي يستهدفه الفن هو الجمال!

فحضور الجمال والقبح جنباً إلى جنب يثير الاستغراب ويطرح الكثير من الأسئلة، التي تتبادر إلى ذهننا بمجرد طرحنا لفكرة القبح وعلاقته باستطيقيا الجمال، وسنعمل في بحثنا هذا على محاولة الكشف عن هذه الإشكاليات والإجابة عنها.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يتناول إحدى المسائل المهمة في فلسفة الجمال ألا وهي إشكالية القبح وعلاقته باستطيقا الجمال، حيث تظهر أهمية دراسة جمالية القبح نقدياً وفلسفياً ليس بوصفه قيمة مناقضة للجمال بل لأنه الوجه الآخر للجمال، والأداة التي تمكننا من معاينة القيم الجمالية واستخلاصها لأن الضد يظهر حسنة الضد، وتتمثل أهداف هذا البحث في كونه محاولة لتبيان مفهوم القبح الاستطيقي وعلاقته بالجمال، ويسعى لتوسيع رقعة الظاهرة الجمالية لتشمل إضافة إلى الجميل، القبيح والجليل وغيرها من أنواع الشعور الاستاطيقي.

منهجية البحث:

أن المنهج الذي ستقوم عليه دراستنا هو المنهج التحليلي التركيبي، إذ سنرجع إلى النصوص الجمالية التي تناولت هذه الإشكالية، ونحاول من خلال تحليل مضامين هذه النصوص والمقارنة فيما بينها الكشف عن طبيعة القبح وعلاقته باستطيقا الجمال، وبعد ذلك سنعمل على إعادة بناء الأفكار التي كشفنا النقاب عنها في التحليل بغاية الوصول إلى رؤية فلسفية متكاملة لطبيعة هذه الإشكالية.

أولاً– القبح والجمال:

تعد مشكلة القبح في استطيقا الجمال واحدة من أعمق المشكلات واعقدها، إذ يشكل القبح جانباً من الحياة وشكلاً أخر للجمال لا مفر من وجوده، وتطرح هذه المشكلة عقبات ومشكلات ضخمة تتمثل في العديد من الجوانب، منها ماذا يعنيه القبيح وما هو جوهره؟ وما علاقته بالجمال؟ وهل بالإمكان أن نصدر أحكام جمالية حوله؟ ذلك أن حضور الجمال والقبح جنباً إلى جنب يثير الاستغراب ويطرح الكثير من الأسئلة، التي تتبادر إلى ذهننا بمجرد طرحنا لفكرة القبح وعلاقته بالجمال، فلطالما كان الحكم بالجمال أو القبح في ميدان الاستطيقا شيء مألوف وشائع عند عامة الناس على اختلاف أوطانهم وأزمانهم، ويجدر بنا أن نعرف الآن ما الذي نعنيه بمفاهيم الاستطيقا والجمال والقبح وفق منظور المعاجم الفلسفية واللغوية وآراء بعض الفلاسفة والمفكرين، قبل الخوض في الكشف عن القبح وعلاقته باستطيقا الجمال.

علم الجمال (Aesthetic):

علم يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظريته، وفي الذوق الفني وفي أحكام القيم المتعلقة بالآثار الفنية، وهو باب من الفلسفة، وله قسمان: قسم نظري يبحث في الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة التي تولد الشعور بالجمال، وقسم عملي يبحث في مختلف صور الفن ونقذ نماذجه المفردة[1]. وأول من وضع هذا المصطلح هو بومجارتن Baumgarten (1714–1762) في كتابه" تأملات فلسفية في موضوعات تتعلق بالشعر" وهو مأخوذ من الكلمة اليونانية "aisthesi" ومعناها الإحساس أو الإدراك الحسي، ثم أطلقت على الإدراك الخاص للجمال كما نراه في آيات الطبيعة والفن.

الجمـالBeauty: مصـدر الجمـال، البهـاء والحسـن، ومنـه الحـديث أن الله جميـل يحـب الجمـال، أي حسـن الأفعـال كامـل الأوصاف[2]، والجمال بشكل عام صفة تلاحظ في الأشياء وتبعث في النفس السرور والرضا، وبوجه خاص إحدى القيم الثلاث التي تؤلف مبحث القيم العليا (الجمال، الحق، الخير)[3].

فهناك فرق بين مفهوم علم الجمال الاستطيقا (Aesthetic) وبين مفهوم الجمال (Beauty)، فالجمال بمعناه الضيق لا يدل إلا على واحد من بين عدة أنواع من القيم الاستطيقية، ليأتي مفهوم القبح ويكتسب قيمة استطيقية ضمن الأنواع الأخرى للجمال بمعناه الواسع[4]. فمفهوم الاستطيقا بمعناه الواسع يشمل كل من مفهوم الجمال والقبح، ولذلك يستعمل عوضاً عن مفهوم الجمال (Beauty) على اعتبار أنه يعني بدراسة الجمال والقبح معاً.

ومفهوم الاستطيقا يعني عند علماء الجمال نظرية الإدراك الحسي أو التأثيرية للإشارة إلى علم الجمال، وهم بهذا التعريف يوسعون من مجال فلسفة الجمال أكثر مما ينبغي، بحيث تشمل كل إدراك حسي وشتى ضروب اللذة والألم، وإن كان كل إدراك للجمال هو إدراك حسي، إلا أنه ليس كل إدراك حسي هو بالضرورة إدراك للجمال، ولقد استخدم كانط Kant (1724–1804) لفظ "الاستطيقا" سابقاً ليدل بها على نظريته في الزمان والمكان بوصفهما صورتي الإدراك بأسره.

في حين لو انتقلنا إلى مفهوم القبح فأنه لا شك أن لفظ القبح يثير في أذهاننا كل ما يتصف بالنقص والشر والاجرام، حيث تشير مقولة القبح إلى المظاهر المنافية للجميل وموقف الإنسان السلبي من الظواهر، فالقبيح بالمعنى الشائع هو المخالف للذوق والمشتمل على الفساد والنقص، وهو مقابل للجميل والحسن وهو يمثل كل شيء مشوه أو مكروه غير حاصل على الانسجام[5]. وفي ميدان الجمال نجد "أن القبيح مقابل للجميل من جهة ما هو مقولة من مقولات الفن، ويطلق على كل ما يبعد الصورة الكاملة لنوعه، أو على كل منافر للذوق، فكل شيء مشوه أو مكروه، أو باذ الهيئة ذميم، فهو قبيح"[6].

1– القبح والجمال في التفكير الفلسفي:

من المعروف أن مفهوم القبح تلقى اهتماماً أقل من مفهوم الجمال الأكثر جاذبية، إذ لطالما كان الجمال هدف وطموح الفلسفة الجمالية على مر التاريخ، وعلى الرغم من الاهتمام الذي تلقه مفهوم القبح في الفترة الأخيرة، إلا أن الفلاسفة تطرقوا إليه ضمن

[1]– صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص–ص: 408–409.

[2]– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، مج11، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1999، ص: 126.

[3]– مدكور، إبراهيم: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1979، ص: 62.

[4]– ستولنيتز، جيروم: النقد الفني– دراسة جمالية–، ترجمة: فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981، ص–ص: 6–7.

[5]– صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، مرجع سابق، ص– ص: 186–187.

[6]–المرجع السابق نفسه، ص– ص: 185–186.

أطروحاتهم حول مفهوم الجمال، فنجد سقراط Socrates (470–399 ق.م) يربط الحكم الجمالي بمبدأ الغاية، ذلك أن الجميل لديه هو الذي يحقق الفائدة حتى ولو بدا قبيحاً، وكل شيء ولو بدا جميلاً هو قبيح إذ لم يحقق الغاية التي خلق لأجلها، فالقبيح ما لا جدوى منه ولا نفع، "فالسّل الذي نحمل فيه الأشياء هو رائع، والدرع والترس، رغم ما فيها من تناسب أجزاء في جمال الصنع، هما قبيحان إذا كانت الغاية منهما ضرر الإنسان"[1].

في حين نجد أفلاطون Plato (427–347 ق.م) يرى أن الأشياء تتفاوت في درجة الجمال، من مثال الجمال إلى أن يصل إلى مرحلة يفقد فيها الشيء صفة الجمال، لكنه لا ينتقل إلى المرحلة الدنيا مرحلة القبح. فالأشياء عند أفلاطون ليست قسمين جميلة وقبيحة، بمعنى أن ما ليس جميلاً يكون قبيحاً حتماً، وإنما هناك مرحلة يخلو فيها الشيء من كلا الوصفين، فكما أن غير العالم لا يكون حتما جاهلاً وإنما هو وسط بين طرفين متناقضين، فكذلك هو الأمر بالنسبة لغير الجميل[2].

بينما يذهب أرسطو Aristotle (384–322 ق.م) إلى أن الجمال هو الانسجام والتناسق؛ فالشيء الجميل يتصف بالجمال بما فيه من تناسب وتماثل والترتيب العضوي لأجزائه، حيث يقول في كتابه "الشعر": "الكائن أو الشيء المكون من أجزاء متباينة لا يتم جماله ما لم تترتب أجزاؤه في نظام وتتخذ أبعاداً ليست تعسفية ذلك لأن الجمال ما هو إلا التنسيق والعظمة"[3]، ويرجع أرسطو جمال العمل الفني إلى نجاح المحاكاة، بغض النظر عن الشيء المحكي أن كان جميلاً أو قبيحاً، فالحياة بفرحها وآلمها وخيرها وشرها من الممكن أن تكون موضوعاً للمحاكاة، وكلام أرسطو هذا يوسع دائرة الفن ليشمل كل شيء حتى الأشياء القبيحة.

أما إذا انتقلنا إلى العصر الوسيط فإننا نجد القديس أوغسطين Saint Augustine (354–430) يتفق مع آراء أرسطو في أن الجمال قائم على التناسب والتناسق والتكامل في الشيء، فالإنسان يميل إلى الموضوع الجميل ويحبه لما في أجزاءه من تناسب وانسجام، وينفر من القبح ويكرهه لما فيه من نشاز واختلال.

وإذا عرجنا إلى العصر الحديث نجد باومجارتن يعتقد "أن ظهور الكمال أو الكمال الواضح للذوق بمعناه الضيق هو الجمال، والنقص المقابل هو القبح، ومن ثم فأن الجمال يمتع الناظر أما القبح فيبعث على الضيق، ويتضح من خلال هذا التعريف أن باومجارتن سار وراء الفكرة التي قدمها الإنكليزي "فولف" Wolf Cristian (1679–1754) في اعتبار الجميل هو الكامل الممتع، في حين أن القبيح هو الناقص الباعث على الضيق"[4]. أما ادموند بيرك Edmund Burke (1729–1797) فقد استبعد القبح في البداية من مجال القيم الجمالية، إلا أنه عاد عن قراره هذا بعد أن رأى إمكانية أن يشكل القبيح موضوعاً للتذوق الجمالي، كما يفعل الجليل وذلك لاقترابهما بالمعنى.

أما أذا انتقلنا إلى هيغل Hegel (1770–1831) نجده يعتمد على مبدأ الحيوية في معالجة مشكلة الجمال والقبح، حيث يقيمها على أساس من طبيعة الموجودات، "فجمال الأشياء نسبي فالإنسان أجمل المخلوقات لأنه أكثرها حيوية، في حين أن مفهوم القبح قائم لديه على نفس الأساس تقريبا أذا نحن عكسناها، فالقبح عنده نسبي والأشياء القبيحة هي تلك التي تمثل الخصائص المناقضة للحيوية العامة"[5].

---

[1]– م، أوفسيانيكوف، ز، سميرنوفا: موجز تاريخ النظريات الجمالية، تر: باسم السقا، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1979، ص: 17.

[2]– إسماعيل، عز الدين: "الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992، ص: 33.

[3]– أرسطو: فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1953، ص: 13.

[4]– إسماعيل، عز الدين: "الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة"، مرجع سابق، ص–ص: 45–46.

[5]– المرجع السابق نفسه، ص: 50.

في حين رأى شارل لالو Charles Lalo (1877–1953) أن القبح في الفن ليس غياباً للانسجام فحسب، بل أنه يمثل الاتجاه السلبي والعدائي حيال الانسجام أيضاً فهو لا انسجام، فلكي تكون الطبيعة قبيحة ينبغي أن تكون قد أخطأت هدفاً، ونكون نحن قد ظنناها قد فشلت في تطبيق تكنيك كائن في الطبيعة ذاتها وألا كانت الطبيعة خارجة عن المجال الاستطيقي[1].

وهكذا نجد تباين مواقف الفلاسفة ووجهات نظرهم في تعريفاتهم لما يعنيه مفهوم القبح ولطبيعة العلاقة التي تربطه بمفهوم الجمال، حيث انقسمت تلك المواقف إلى من اعتبر القبح ضداً للجمال، ومن رأى به نوعاً من أنواع التجربة الجمالية، وسنحاول الآن الوقوف عند هذين الموقفين لتوضيح طبيعتهما.

1-1- القبح بوصفه ضداً للجمال:

كان التفكير الفلسفي السائد عن الجمال يفترض أن القبح لا بد أن يكون شيئاً مضاداً للجميل، على أساس أن ثنائية الجمال والقبح في ميدان الاستطيقا، هي نفس ثنائية الخير والشر في ميدان الأخلاق أو الصدق والكذب في ميدان الحق، فرغبة الفلاسفة في إرضاء نزعتهم بالتناسق والتماثل بين القيم أدت إلى أقامتهم للتعارض بين القبيح والجميل، حيث ضل التفكير الفلسفي القائم على الثنائيات حاضر بقوة، وهذا ما أدى أيضاً إلى الفشل في التمييز بين ما هو قبيح وما هو غير جميل وهما مفهومان متمايزان في الحقيقة.

بناءً على ذلك كان الاعتقاد بأن القبح هو غياب لخصائص معينة ترتبط بالجمال؛ كالانسجام والتناسق والوحدة، فالأشياء القبيحة هي التي تخلو من الخصائص الجمالية، فالقبح بناءً على ذلك ليس فقط غياباً للتناسق بل هو عدم التناسق ينتشر في المكان الذي ينتظر أن يكون أو يجب أن يكون منسجماً متسقاً، فالأشياء تبدو قبيحة أذا هي أخطأت هدف ما.

هذه الوجهة من النظر والتي تعتبر القبح مفهوماً مضاداً للجمال، قد عبر عنها شارل لالو بقوله" أن القبح مضاد للجمال والروعة وهو ليس خارج الميدان الاستطيقي فحسب، بل هو لا استطيقي بالمرة وضد دين الجمال"[2]. كذلك نجد كروتشه Croce (1866–1952) يعتبر مفهوم القبح مفهوماً مضاداً للجمال، حيث يلاحظ أن فلسفة الجمال قد تناولت مسألة القبح والجمال كما لو أنها مسألة ذات أهمية كبيرة، في حين أنها مسألة غير ذات معنى بالنسبة إليه، حيث لا يرى كروتشه بالقبيح ألا ما هو ضداً للجميل وللقيمة الجمالية، وذلك تماشياً مع مفهومه العام للجمال القائم على تعريف الجمال باعتباره حدساً تعبيرياً، وبناءً على هذا التعريف يضع كروتشه عدد من النقاط للتمييز بين الجمال والقبح، وأول تلك النقاط أن الجمال هو التعبير الناجح في حين أن القبح هو التعبير غير الناجح، "فالجمال هو العبارة الموفقة أما القبح فهو بالتالي العبارة المخفقة"[3]، فما هو تعبير هو جميل وما ليس بتعبير فهو غير جميل.

كذلك يتميز الجمال عن القبح بكونه وحدة واحدة لا انفصال فيها، في حين أن القبح يُعتبر متعدد، "فنحن عندما نشاهد بعض الآثار الفنية التي تحوي قدراً من القبح سواء أكان قليلاً أما كثيراً، فإننا نتحدث عن نواحيها الجميلة فقط لا عن كل الأثر الفني، بينما لا نستطيع تعدد المزايا الجميلة في الآثار الجميلة الكاملة وذلك لأنها تُعد وحدة واحدة وكل متصل"[4].

---

[1]– لالو، شارل: مبادئ علم الجمال، تر: مصطفى ماهر، مر: يوسف مراد، دار إحياء الكتب العربية، 1952، ص: 121.

[2]– لالو، شارل: مبادئ علم الجمال، مرجع السابق، ص: 122.

[3]– كروتشه، بنديتو: علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، مر: بديع الكسم، المطبعة الهاشمية، 1963، ص: 103.

[4]– المرجع السابق نفسه، ص: 104.

وهكذا يُعتبر القبح عند كروتشه مفهوماً مضادً للجميل والذي هو التعبير الناجح، إذ يعد اخفاقاً وفشلاً في التعبير، وعكساً للقيمة الجمالية، ولعل مفهوم كروتشه هذا عن القبح باعتباره ناتج عن اللاتعبير قريب من مفهوم القبح الذي قدمه باومجارتن، والذي رأى بالقبح نقصاً في المعرفة في مقابل المعرفة الكاملة للجميل، فلما كان التعبير عند كروتشه ينتج عن غنى بالمعرفة فأن النقص في هذه المعرفة يؤدي إلى عدم التعبير مما يعني القبح، ولعل هذا المفهوم يقترب أيضاً من قول بوزانكيت Bosanquet Bernard (1848–1923): "بأن القبيح هو جمال وضع في غير مكانه نتيجة جهلنا وضعفنا وعدم معرفتنا"[1]. كما وقد تأثر بمفهوم كروتشه هذا عن القبح الفيلسوف الإنجليزي كولنجوود Collingwood (1889–1943) والذي رأى أن العمل الفني الجيد هو العمل الذي ينجح في التعبير في حين أن العمل الفني الرديء هو الذي يفشل في التعبير.

والقبح بناءً على هذا الرأي يُنظر إليه كما ترى كوبلين Kuplen Mojca "على أنه فئة تتعارض مع الجمال، وبالتالي فهي مرتبطة بالاستخفاف الجمالي وانعدام القيمة"[2].

لكن لو سلمنا بوجهة النظر هذه واعتبارنا القبح ضداً للجمال، ألا يجب حينها أن يتم استبعاده من ميدان الفن؟ ألا يجب حينئذ إدانة أي عمل فني يحتوي على القبح ضمن مادته؟ غير أن الواقع في الحقيقة يشهد بخلاف ذلك إذ أن ما يسمى عادةً بالقبح لم يستبعده الفنانون من ميدان أعمالهم بل كثيراً ما كان يعتبر قوة إضافية لجمال العمل وعمقه، وهذا ما سنقومه بشرحه بعد قليل.

1-2- القبح بوصفه مقولة جمالية:

يذهب أنصار هذا الموقف إلى اعتبار القبح مقولة من المقولات الجمالية، مثله في ذلك مثل مقولة الجليل والرائع والهزلي والمأسوي، وهم بذلك يرون به نوعاً من أنواع القيمة الجمالية، فالقبح ليس عكس الجمال، بل هو نوع من أنواعه، إذ لو كان القبح ضداً للجمال، لما كان بالإمكان أن يكونا موجودين في نفس الوقت؛ فالضدان لا يجتمعان. في حين أنه من الممكن أن يجتمع ما هو جميل وقبيح في آن واحد، وهذا ما نشاهده بكثرة في الأعمال الفنية المعاصرة والتي عملت على ادخال عناصر القبح والجمال في العمل الفني الواحد منتجة بذلك متعة ولذة استطيقية.

وما اعتقاد الناس بتضاد الجمال والقبح إلا نتيجة افتراضهم أن الجميل يؤدي في طبيعة الأحوال إلى متعة ولذة في حين أن القبيح يؤدي على العكس إلى الألم والاستياء؛ والمتعة والألم ضدان، غير أن مثل هذا الاعتقاد غير صحيح في الواقع، فعلى الرغم من أن القبيح قد ينتج شعوراً بالألم إلا أن هذا الشعور ليس شعوراً استطيقياً بتاتاً، وإنما الشعور الاستطيقي الخالص الذي ينتجه القبيح هو شعور بالمتعة واللذة.

إذ قد يكون العمل الفني قبيحاً من الناحية النظرية، إلا أنه يظل مع ذلك عملاً فنياً أصيلاً، لأنه يُثير متعة ولذة، فقبح امرأة في لوحة ما لا يدفع للحكم على اللوحة بالقبح، ذلك لأنها قد تكون من أكثر اللوحات جمالاً.

إذن فالقبيح قد استقر لدى العديد من مفكري القرن العشرين كمقولة من مقولات القيمة الجمالية، وكثيراً ما كان الخلط بين الجمال واللاجمال، فأحياناً نتوقع الجمال ثم فجأة نجد أن الموضوع الذي توقعنه قد أحبطنا، فنشعر بالحزن، ونقول عن الموضوع الذي أحبطنا في هذه الحالة بأنه موضوع قبيح، فنحن مثلاً نتوقع من المرأة أو المزهرية أن تكون جميلة، فإذا لم تؤدي بنا إلى أية انطباعات استطيقية فإننا نميل إلى وصفها بالقبح، وهذا جورج سانتيانا George Santayana (1863–1952) كان قد أعلن "بأنه

[1]– عبد المعطي، علي: بوزانكيت –قمة المثالية في إنجلترا–، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر، ص: 375.

[2]- Kuplen, Mojca: Aesthetic Of Ugliness- A Kantian Perspective, European Society For Aesthetics, Vol: 5, Friborg, Switzerland, 2013, P: 260.

ليس هناك شيء قبيح في ذاته ولكنه يصبح كذلك لأننا نتوقع شيئاً مخالفاً في هذه اللحظة، كمشهد أم وجدت في مهد طفلها ثوراً وليداً بديع الخلقة"[1].

ولما كانت كلمة الجمال في الاستطيقا تستخدم في معنى واسع وتشمل قيم: الجليل، والمرعب، والكوميدي، فلما لا تشمل القبيح أيضاً؟! فأي انطباع استاطيقى يمكن أن يؤدي إلى متعة يدخل في مجال الجمال، والقبح يؤدي إلى انطباع استاطيقي يمكن أن يكون ممتعاً بدلاً من الانطباع المؤلم الذي يفترض في العادة[2].

هنا يُطرح أمامنا مصير القبح بمعناه التقليدي؟ فهل هناك موضوعات رديئة من الوجهة الاستطيقية، وهل يوجد ضد للقيمة الاستطيقية؟ في الحقيقة أن القبح بهذا المعنى– ضد الجمال– لا وجود له كما نعتقد، فلو كان هناك شيء غير جميل على الإطلاق (أي غير معبر) لما كان مقولة استطيقية على الإطلاق –أذا ما تم تعريف الاستطيقا من خلال التعبير– فإذا كان الشيء غير معبر فأنه يقع خارج مجال الاستطيقا تماماً، والقبح بمقدار ما هو معبر لابد له أن يعد نوعاً من القيمة الاستطيقية، بمعنى أنه لو كان القبح غير استاطيقي فأنه لا يمكن أن يكون ذو قيمة استطيقية، ورغم ذلك يبقى هناك اعتقاد بأنه لا وجود لما يسمى بالقبح الميؤوس منه، فحتى هذا القدر من القبح الميؤوس منه ليس انعداماً تاماً للقيمة الاستطيقية، فمن الممكن للموضوعات القبيحة أن توصف بأنها استطيقية بصورة مبدئية لأنها معبرة إلى حد ما[3].

والقبح بناءً على ذلك ليس هو الضد للجميل، بل هو على العكس نوع من أنواعه، في حين أن ضد الجمال هو غير الجميل أو المحايد من الناحية الاستطيقية، أنه الغياب السلبي المحض للجمال (أو المتعة الجمالية الاستطيقية)، فالموضوع قد لا يكون جميلاً وأيضاً قد لا يكون قبيحاً، لكونه لا يخلق مشاعر بالمتعة الاستطيقية، فالأعمال الفنية غير الناجحة (الفاشلة) وما لا قيمة لها لا يُقال عنها قبيحة وإنما غير جميلة، فاللاجمال هو ضد الجمال وليس القبح (لكون القبح ذو مضمون استطيقي إيجابي). فلو كان هناك أي شيء يقاوم الإدراك الاستطيقي للجميل مقاومة مطلقة وعلى نحو ميؤوس منه لكان هذا الشيء خارجاً عن نطاق البحث الاستطيقي.

وهذا ما أخذ به ولتر ستيس Walter Stace (1886–1967) بقوله "أن اللاجمال هو ضد الجمال، إذا كنا نعني بما يضاد الشيء مجرد غيابه، لكن إذا كنا نفهم من كلمة الضد ضرباً من الوجود الإيجابي، فأن الجمال عندئذ سيكون لا ضد له على الاطلاق"[4]. وهكذا فأن الضد عند ستيس لا يمكن أن يكون تصوراً إيجابياً بل سلبياً فحسب، وهذا لا يمكن أن ينطبق على القبح وإنما ينطبق على غير الجميل.

مما تقدم نجد أن بعض وجهات النظر الفلسفية قد عملت على أهمل التقابل بين القيم السلبية والقيم الإيجابية في ميدان الجمال، في حين أن المتعة الجمالية في الواقع هي متعة الجميل والقبيح، فكما أن الأخلاق تقوم على الخير والشر لأنهما مقولتان أخلاقيتان احدهما موجبة والأخرى سالبة ولا يمكن أن يتحقق الخير إلا من خلال معرفة الشر، فكذلك الحال في الجمال والقبح فهما قيمتان احدهما موجبة والأخرى سالبة، فالقبح يعمل على أبرز جمال الجميل عبر المضاهاة والمقارنة بينهما، ففي قصة زولا بعنوان "القبيحة" يكتشف البطل أنه حين تكون امرأة ليست جميلة إلى جوار أخرى قبيحة فإنها ستبدو جميلة، حيث يتم اتخاذ القبح هنا وسيلة لإظهار الجمال في الفن وهذا ما سيدخله فعلاً ضمن القيمة الجمالية، وهذا ما عبر عنه بلنسكي Belinsky (1848–

[1]– سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة: زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت، ص: 75.

[2]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، تر: أمام عبد الفتاح أمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000، ص: 105.

[3]– ستولنيتز، جيروم: النقد الفني– دراسة جمالية–، مرجع سابق، ص–ص: 412–414.

[4]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، مرجع سابق، ص: 95.

1811) بقوله "أن التعبير عن القبح يستدعي إدانته وينبه ضمناً إلى ما ينبغي أن يكون عليه الحال، فكأن عرض القبيح تأكيد غير مباشر للجميل واحتجاج على ما في العالم من قبح وظلم"[1]. فلا يوجد في العالم قبح إلا باعتبار، ومن الممكن أن يكون القبيح جميلاً على صعيد الوظيفة التي يقوم بها، حيث يعمل على إظهار جمال الجميل عبر المضاهاة فيما بينهما ولولاه لما كان للجمال ذلك الوضوح والأَلَقَ، حيث يحضر القبح هُنا بصفته مبرزاً ومعززاً للجمال، فالقبح قد يعمل كأرضية لتقوية أثر الجميل.

إذاً فقيام البعض باستبعاد القيم السلبية (بما في ذلك القبح) من الجمال هو استبعاد للوجه الآخر من الحياة، وهذا ما أدى بهم إلى التقصير في فهم طبيعة الظاهرة الجمالية.

ثانياً– الفن والقبح:

تمثل صلة الفن بالقبح إحدى المواضيع التي أثارها ادخال مفهوم القبح إلى المجال الاستطيقي، ذلك لأن الظاهرة الفنية لا تقتصر على مفهوم الجمال فقط، بل تتعدى الجمال لتشمل ما هو مخيف أو حزين أو منفر أو شاذ أو قبيح. فمنذ الفيلسوف "سقراط" إلى اليوم والجميل يمثل أساس العمل الفني في فلسفة الفن والدراسات الجمالية والنقدية مع الأخذ بعين الاعتبار أن الجميل لا يمكنه الظهور في المطلق أو الفارغ وذلك لارتباطه الطبيعي بالقبيح، الذي أصبح مادة للتشكيل الجمالي في كثير من الفنون على اختلاف مسمياتها وتقسيماتها لدرجة أن الفنون الحديثة تتأسس عليه بوصفه سمة إبداعية متطورة[2].

وقد جعل الفن المعاصر من القبح مصدراً جديداً للخلق والإبداع، "فالقبح لا يُعتبر أمراً مثيراً للاهتمام من الناحية الجمالية فحسب، بل بمكن أن يكون أسراً ومثيراً ومهماً من الناحية الجمالية"[3]. حيث تبلورت هذه الفكرة في مصطلح "استطيقا القبح" فلم يعد الجميل معياراً فنياً، فمنذ بداية القرن العشرين تم استبداله بقيم الصدمة والتغيير وحتى السعي نحو القبح، هذا التطور يدفعنا لمحاولة الكشف عن ماهية العلاقة بين الفن والقبح، كما يدفعنا للتساؤل عن إمكانية أن يصبح ما هو قبيح في ذاته جميلاً في الفن؟ وأن كان الجواب بالإيجاب، فهل يمكن أن تكون له قيمة جمالية؟ أي هل يمكن أن تؤدي الأشياء القبيحة إلى شعور استطيقي جميل؟ وهل بالإمكان أن نعد جميع الأشياء جميلة؟

كما ما هو معروف فأنه لا يوجد شيء في جوهره قبيح، فإذا كانت الانطباعات الحسية مدعاة للألم فمن الصعب علينا أن نُحيلها إلى موضوعات، فإدراك الشيء بالحواس في الظروف الطبيعية حينما لا تكون الحواس قد أصابها الإعياء يكون دائماً مصدراً للذة أكثر منه للألم[4]، فكل شيء جميل لأن كل شيءٍ قادرٍ على أن يجذب انتباهنا، وهنا يستحضرنا قول جيروم ستولنيتز "أنه إذا أمكن إدراك كل شيء بتنزه وتعاطف فعندئذ لا يكون ثمة شيء قبيح إلى حد ميؤس منه"[5].

والشيء القبيح كما يرى البعض لا يمكن أن يصير جميلاً، ولكن المحاكاة تثير إعجابنا عندما تكون مطابقة للشيء المُحكي، فالجمال والمحاكاة الجميلة هما شيئان مختلفان، فلابد من التفريق بين القبح في الواقع وتمثيله الجمالي في الفن، حيث أكد الفلاسفة على الجميل الفني، فالشيء يمكن أن يكون قبيحاً في الطبيعة لكنه قد يصبح جميلاً في الفن، فالجمال في الفن يتسع ليشمل تمثل

[1]– بلوز، نايف: علم الجمال، مطبوعات جامعة دمشق، 1982، ص: 98.

[2]– نقرش، محمد عمر: جماليات القبح في النص المسرحي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 40، العدد 2، 2013، ص: 366.

[3]- Kuplen, Mojca: Aesthetic Of Ugliness- A Kantian Perspective, European Society For Aesthetics, Ibid, p: 277.

[4]– سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، مرجع سابق، ص: 150.

[5]– ستولنيتز، جيروم: النقد الفني– دراسة جمالية–، مرجع سابق، ص: 417.

كل شيء سواء أكان قبيحاً أو جميلاً، هذا ما كان قد أشار إليه كانط بعباراته القائلة "إن الجمال الطبيعي هو شيء جميل؛ أما الجمال الفني فهو تمثُّلٌ جميل لشيء ما"[1]. وهذا القول يعني بأن أي موضوع حتى وأن كان قبيحاً في الطبيعة يمكن أن يُشكل موضوعاً لتمثل الفنان، ذلك أن مناط الأمر في هذه المسألة هو قدرة الفنان على صنع شيء جميل من ذلك القبيح.

هذا الموقف تبناه أرسطو أيضاً بإشارته إلى إتقان الصفة في أي عمل فني بغض النظر عن موضوعه في الواقع حتى ولو كان قبيحاً منفراً، فأرسطو يحدثنا عن استجابة ذهننا لمهارة الفنان وذكائه وكذلك العلاقة بين ذكاء الفنان وأهمية الأشياء التي يصورها، لأنه كما ينقل إلينا الشيء الجميل (في نظرنا) فأنه كذلك ينقل إلينا ما هو قبيح في حد ذاته أو في نظرنا أيضاً، والمتعة التي تحدث لنا بسبب مهارة الفنان في نقل القبح تحمل في طياتها ضمناً أن ما هو قبيح كل القبح، ولكنه معجب في الفن، فيه شيء يستطيع الإدراك أن يفهمه على أنه جميل، وهذا الإدراك بطبيعة الحال هو إدراك الفنان أولا وإدراك المستمع بفنه ثانياً[2].

إذاً من الممكن أن يكون القبيح جميلاً أذا ما أزيل عنه ما ينفره، وهنا يبرز سمو الفنان الذي يستطيع أن يرى في القبح والألم جمالاً ما لا يستطيع أن يراه الرجل العادي، وهنا يمكننا أن نستحضر مقولة فنسنت فان جوخ القائلة: إن للأشياء القبيحة خصوصية فنية قد لا نجد لها مقابل في الأشياء الجميلة، وعين الفنان لا تخطئ ذلك. إذن فالقبيح يمكن أن يصبح جميلاً من خلال التمثيل والتصوير الفني، وهذا ما يُشير إليه كانط بقوله: "أن الفن الجميل يعرض تميزه على وجه التحديد من خلال وصف الأشياء الجميلة التي قد تكون قبيحة أو مزعجة في الطبيعة"[3].

وعلى نفس الرأي يسير أمبرتو إيكو Umberto Eco (1932–2016) إذ يرى أن الفن يمكنه دائماً تصوير الكائنات القبيحة بطريقة جميلة حيث يقول: "أن القبح الذي يصدنا في الطبيعة موجود، لكنه يصبح مقبولاً وممتعاً في الفن الذي يعبر ويُظهر بشكل جميل قبح القبيح"[4]. فأشد الأشياء قبحاً في الطبيعة قد تكتسب في مجال الفن صبغة استطيقية واضحة، وهذا ما عبر عنه أحد الشعراء بقوله: "أنه ما من ثعبان قبيح أو وحش مسيخ الخلقة إلا واستطاع الفن أن يخلق منه صورة جميلة ترتاح لمرآها الأعين"، مما حدا ببعض علماء الجمال إلى القول بأن وظيفة القبح في الفن هي موضوع استطيقي جدير بالدراسة[5]. ونستطيع أن نتفق هنا مع ما ذهبت إليه الدكتورة نائلة المحمودي من القول "بإنه كل عمل فني مهما بلغت درجة القبح فيه فأنه يحمل معايير وأساساً جمالية تثري العمل الفني وتساعد المتلقي في تذوقه والحكم عليه"[6].

1–مكان القبح في الفن:

من الطبيعي أنه لا يوجد مكان ولا وظيفة في الفن لما هو غير جميل، وإدخال عناصر لا تمتلك أي طابع استطيقي لن يفعل شيء إلا أن يضعف القوة الاستطيقية العامة للعمل الفني، ومن الطبيعي أن الفشل المحض للأثر الفني لا يمكن أن يكون عنصراً في الفن الجيد، لكن لما كان للقبح مكان في كثير من الأعمال الفنية العظيمة، فكيف نفسر ذلك؟

[1]– كانط، إيمانويل: نقد ملكة الحكم، تر: غانم هنا، ط:1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005، ص: 237.

[2]– إسماعيل، عز الدين: "الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة"، مرجع سابق، ص: 49.

[3]- Kuplen, Mojca: Beauty, Ugliness And The Free Play Imagination, An Approach To Kant's Aesthetics, Springer International Publishing, Cham, Switzerland, 2015, P: 15.

[4]- Parret, Herman: On The Beautiful And The Ugly, Trans/Form/Açao, vol: 34, Universidad Estadual Paulist A, Department To De Filosofia, Marilia, Brazil, 2011, P: 27.

[5]– إبراهيم، زكريا: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1966، ص: 49.

[6]– المحمودي، نائلة المنير: جمالية استطيقا القبح في العمل الفني، مجلة الجامعي، عدد: 25، ليبيا، 2017، ص: 362.

في الحقيقة أن أولئك الذين يجدون بالقبح ضداً للجمال يفسرون وجود كل منها معاً في الأعمال الفنية على اعتبار أن هذه الأشياء تكون قبيحة بالنسبة لصفات محددة وجميلة لصفات أخرى، فقد تبدو الهيئة الخارجية للشيطان جميلة من حيث الشكل، إلا أنها تكون قبيحة بالنسبة إلى قيم الفضيلة والأخلاق من حيث نواياها الشيطانية[1].

أما أولئك الذين رأوا بالقبح نوعاً من أنواع الجمال، فأنهم فسروا وجوده في الأعمال الفنية بكون القبح يحمل متعة ولذة جمالية بوصفه ضرب من ضروب الجمال، ولذا فأن وجوده لا يتعارض مع القواعد الفنية والجمالية للأعمال الفنية، الأمر الذي يجعل ادخله في مجال الفن أمراً طبيعياً ومقبولاً.

وهذا ما دفع ولتر ستيس للاعتقاد بأن أولئك الذين يؤمنون بأن القبيح لا يمكن أن يشكل عنصراً في الفن الجميل، قد اتجهوا إلى إنتاج أشكال من الجمال عاطفية ولا طعم لها، في حين أن الذين اعتقدوا أن للقبح مكاناً في الفن أنتجوا أعمالاً فنية قوية وعميقة حية[2]، فالأشياء القبيحة تعزز من جمال الجميل الأمر الذي يجعل من القبح عنصراً مساعداً للجمال لكنه ليس الهدف النهائي في حد ذاته، فهو يُعزز من تأثير الجمال ويؤدي إلى فهم أفضل للجمال نفسه، فالقبيح يُعد إضافة للعمل الفني نظراً لغرابته وجاذبيته.

والقبح في هذه الحالة شبيه بأنواع أخرى من الانطباع الاستطيقي، كالرعب مثلاً؛ فكثيراً ما يستخدم الفنان ما هو مرعب كعنصر في فنه، فالرعب قد يؤدي إلى انطباع استطيقي معين، ولعل هذا ما أدركه أرسطو حينما أدخل الرعب بين عناصر الدراما الأمر الذي يزيد من متعتها الجمالية. فعند تحليلنا لمفهوم الرعب نجده في ذاته مؤلم؛ مثله مثل القبيح، فهو يؤدي إلى الخوف والخوف انفعال مؤلم، ومع ذلك ففي تلك الحالات التي نتعرف فيها على الجمال فيما هو مرعب فإننا نشعر أيضاً بالمتعة، وفي حالة القبح تكون لدينا نفس المفارقة، فعندما يدخل القبيح كعنصر استطيقي في الفن، فمن المؤكد أنه يخلق شعوراً بالاستياء، لكنه مع ذلك يؤدي إلى المتعة، فالقبح يشارك المرعب في خاصية إنتاج المتعة والاستياء معاً[3].

فعندما يمتزج مفهوم ما في تجربتنا الاستطيقية بالمجال الإدراكي، فأنه لا يفقد بذلك قيمته الشعورية الخاصة، بل أن قيمته الشعورية سوف تشع على العكس من خلال التجربة الاستطيقية وسوف يشعر بها من يمر بهذه التجربة، فلو كانت القيمة الشعورية مؤلمة فسوف يتلقى صاحبها انطباعين شعوريين متعارضين، سوف ينشأ الألم أو الاستياء كقيمة شعورية أصلية للمفهوم، لكن في الوقت ذاته سوف تنشأ المتعة الاستطيقية من امتزاج المفهوم والمدرك، وتكون النتيجة التحقق التالي في التجربة العينية للفكرة العقلية. بهذه الطريقة سوف نستطيع تفسير جميع أنواع التجربة الاستطيقية التي يبدو فيها إننا نحصل على المتعة فيما هو مؤلم، وسوف يتخلص المرعب والمأساوي والجليل وكذلك القبيح عن طابعها المفارق[4]، ويصبح وجودها في المجال الاستطيقي مقبولاً.

فمهمة الفن إذن أحالة الاشياء القبيحة إلى جميلة؛ فعلى الفن أن يُعري القبح، إذ أن الفن كما اعتقد أرسطو أداة تطهير إذ يحول شعور النفور من القبيح والرديء إلى شعور بالرضى الجمالي، "فما كان قبيحاً في الحياة يمكن أن يكون جميلاً في الفن، فالفن والقبح لا يتعارضان بل يرتبطان بالنهاية كتوجه إستاطيقي إيجابي"[5]. وعليه فأن المتعة التي يسببها العمل الفني بفضل مهارة الفنان

[1]– جلبي، شوان عبد الخالق: الشكل والجمال، الخصائص الشكلية قياسها وأثر تغييرها على درجات الاستجابة الجمالية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة التكنولوجية، قسم الهندسة المعمارية، بغداد، 1998، ص: 6.

[2]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، مرجع سابق، ص–ص: 97–98.

[3]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، مرجع سابق، ص: 98.

[4]– المرجع السابق نفسه، ص: 100.

[5]- Peter, Collins: Changing Ideal in Modern Architecture, Faber and Faber, London, 1965, p: 244.

في نقل القبيح، تحمل في طياتها ضمناً أن ما هو قبيح كل القبح يمكن أن يتحول بسبب المعالجة الفنية البديعة للفنان إلى ممتع في الفن، فيفهمه الإدراك على أنه جميل، وهذا ما توضحه اللوحات التشكيلية المؤذية أحياناً بفجاجتها بتوليدها قيم تفوق في بعض جوانبها تلك التي ترتكز على قيم الجمال الكلاسيكية، فمسار الفن الحديث أخذ يبرز أكثر فأكثر جمالية القبح، وذلك عبر تضمين مجال الجمال بنسق من المقولات التي تشمل الجميل والقبيح والجليل والتافه والمأسوي والهزلي، فلم تعد دائرة الجمال تقتصر على الشيء الجميل وحده، بل اشتملت على جميع القيم الإيجابية والسلبية التي تتشكل من خلالها حياة الإنسان.

مما سبق يتبين لنا قدرة الفن على تحويل القبيح إلى جميل استطيقياً، فالقبيح يكتسب جماليته من موهبة الفنان الذي يعمل على تحويل الموضوعات القبيحة والمستبعدة ذوقياً وأخلاقياً إلى عمل فني جميل، مما يؤدي إلى توسيع مجال رقعة الظاهرة الجمالية لتشمل القبيح، فالفن توأم الجمال، والفنان الحق هو الذي يصور حتى القبيح تصويراً جميلاً، فهذا فنسنت فان جوخ في عمله المشهور "آكلو البطاطا"[1] صنع من الموضوع الذي يراه البرجوازي قبيحاً صنع منه موضوعاً جمالياً. وما صنعه أوديب حين قام بقتل والده والزواج من والدته هو مرعب وقبيح، لكن سوفوكليس Sophocles (496–405 ق.م) حول هذين الفعلين من خلال الفن إلى مسرحية خالدة جميلة.

لكن هناك حالات يكون فيها القبح من الحدة بحيث لا يكون بالإمكان قهره، وذلك عندما تكون كثافة ما هو غير سار كبير إلى حد يمكن معه تدمير الموقف الجمالي، وفي هذه الحالة نكون قد تجاوزنا الحد في إدخال القبيح في الفن، هذا ما يدفعنا إلى السؤال عن الحد الفصل في إدخال القبح في الفن؟ أي ما هي كمية القبح المسموح بها في العمل الفني؟ في الواقع لا يمكن حسم هذه المسألة من خلال المبادئ الفلسفية، بل لا بد أن يترك الأمر لعبقرية كل فنان وقدرته على جذب المشاهدين، فالفنان قد يدخل في فنه تصورات هي من الناحية الأخلاقية شريرة ومقززة وحتى منفرة، لكنه يستطيع ببراعته وعبقريته أن ينتج منها متعة استطيقية، لكن لو أن الألم أو النفور كان يفوق المتعة الذي أنتجها فأن النتيجة العامة هي أن العمل الفني سوف يكون بغيضاً إلى أنفسنا ومن ثم سيفشل في المتعة التي كان يرمي إليها[2].

وهكذا نجد أن مقولة القبح قد رسخت أقدامها في مجال القيمة الجمالية جنباً إلى جنب مع الجميل والجليل أيضاً، وقد تطورت مقولات القيمة الجمالية عبر القرون بدءاً من جعل الجمال محدود وضيق النطاق ومرتبطاً بالأخلاق مروراً بالمحاولات الدائبة لتوسيع مجالات القيمة الجمالية وانتهاءً إلى دخول مقولتي الجليل والقبيح وغيرهما إلى مجالاتها[3].

هذا التطور أفسح المجال لدراسة وإبداع موضوعات جمالية غير تقليدية ودراسة تأثير ذلك على الخبرة الجمالية، كما أساهم في تركيز الاهتمام على موضوعات وأعمال فنية لم يكن من الممكن أن تجد أدنى اهتمام لو ظلت الرؤيا التقليدية للجميل والتي ترى به وحده موضوعاً للجمال هي السائدة، فالفن الحديث أضحى يبرز أكثر الدور الذي يجب أن يلعبه ما كان ينظر إليه تقليدياً على أنه قبيح في الجماليات والإنتاج الفني.

[1]– استطاع فان جوخ بفضل بارعته الفنية ومعالجته البديعة أن يصنع من الواقع القبيح الذي يعيشه الفلاحين من ظلم واستغلال من قبل الاقطاعيين البرجوازيين الجشعين، لوحةً فنيةً نالت إعجاب واستحسان المشاهدين، وكذلك الأمر بالنسبة لسوفوكليس الذي خلق من الفعل الرذيل والقبيح الذي قام به أوديب تحفة فنية خالدة إلى يومنا هذا.

[2]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، مرجع سابق، *ص:* 103.

[3]– الصباغ، رمضان: الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1998، ص: 123.

ثالثاً- القبح والأخلاق:

لطالما مثلت مشكلة العلاقة بين الجمال والأخلاق واحدة من أعمق المشكلات واعقدها، يفسر هذا ما نراه من أراء متضاربة وأقوال متباينة حول هذه العلاقة، وما نشأ عنها من مدارس وتيارات وصلت إلى حد التضارب والتنافر، حيث شغل الموضوع العلائقي بين الجمال والأخلاق فكر الكثير من الفلاسفة ومفكري الجمال منذ القدم، ويندرج ضمن هذه الإشكالية علاقة مفهوم القبح- بوصفه قيمة استطيقية- بالقيم الأخلاقية، حيث كان السؤال الأزلي في هذه القضية: هل يرتبط القبح بمضامين أخلاقية أم يجب الفصل بين القبح والأخلاق؟

إذ نجد أن هناك من الفلاسفة من يدعوا إلى ربط الجمال (بما يشمل من قيم.. الجلال والقبح والمأسوي..) بالأخلاق، ومنهم جورج سانتيانا الذي يمضي في كتابه "الإحساس بالجمال" إلى إقامة أخلاق جمالية، على اعتبار أن الفضائل العليا كالشرف والصدق والنظافة حينما تُثير عدم هذه الفضائل اشمئزازاً غريزياً في النفوس، كما يحدث في حالة المهذبين من الناس، فإن الاستجابة حينئذ تكون في جوهرها استجابة جمالية وذلك لأنها لا تقوم على التفكير وحب الخير، وإنَّما تقوم على حساسية المزاج، ومع ذلك فأنَّ هذه الحساسية الجمالية تُسمى بحق حساسية خلقية لأنها وليدة التدريب الخلقي الواعي، فهذه الفضائل الجمالية مبعثها نفور الضمير من القبيح والدمامة التي ينطوي عليها كل سلوك أخلاقي لا يراعي أمثال هذه المبادئ[1]. سانتيانا هُنا يربط الجمال - بما يحويه من قيم قبيحة- مع الأخلاق، وذلك لما يحمله هذا الربط من مزايا وثمار طيبة، إذ أن إحساسنا بالمصلحة العملية لا يحدد القيمة الخلقية فحسب، بل يحدد وجودها ذاته من حيث هي خير جمالي.

في حين يذهب آخرون إلى الاعتقاد بأن علم الجمال وعلم الأخلاق يسيران في غالب الأمر في اتجاهات متعارضة، والفن له أحد الأثرين، أي أما أن يكون له أثراً أخلاقياً وأما أن يكون له أثراً جمالياً، فهو إما يبهر أتباعه دائماً لدرجة أنه يطبعهم بمغزاه الأخلاقي، وإما يعتقد أنه يتمتع باستقلال كامل وبالتالي يبعد أتباعه عن المعنى الأخلاقي أصلاً، وبين هاتين القيمتين يقوم توتر لا يمكن تجنبه أو حله إلا بالتوفيق بين الاثنين، بحيث يكون لأحدهما الكلمة الأخيرة[2].

ففي الحالة التي ينسب فيها القبح إلى المجال اللااستطيقي، وتكون التجربة مملة أو مؤلمة فأن القبح هنا هو الاستهجان الأخلاقي لانعدام الاستطيقية في موقف ما، عندها يُعد تقويم أخلاقي أكثر من هو جمالي، بمعنى أخر لا يجوز أن تكون الخبرة والنظرة العمياء هي التي تحول بين اتخاذ موقف استطيقي من الموضوعات كأن تكون لها ارتباط بما يعد وضيعاً أو محظور ويثير الكراهية الأخلاقية أو الدينية وربما ببساطة غير مألوفة[3].

كما أن الأهمية الأخلاقية للعمل الفني تتمثل في الموقف الأخلاقي الذي يتخذه الفنان من موضوع العمل، فحين يكشف لنا الفنان عن وجه الشر لكي يبين مدى قبحه- كما في لوحة الجويرنيكا لبيكاسو Picasso (1881-1973) ولوحة اهوال الحرب لجويا Goya (1746-1828)- فإذا جردنا الموضوع وبحثنا في الاتجاه الذي يعبر عنه الموضوع لإدراكنا إلى أي حد يعد العمل أخلاقياً بحق، فهما يدينان من خلال أعمالهم فضائع الحرب وأهوالها. ومع ذلك من الواجب التمييز بين الممارسة الجمالية وبين

[1]- سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، مرجع سابق، ص: 57.

[2]- برتلمي، جان: بحث في علم الجمال، تر: أنور عبد العزيز، دار النهضة، مصر، 1970، ص: 512.

[3]- ستولنيتز، جيروم: النقد الفني- دراسة جمالية-، مرجع سابق، ص: 415.

الحكم الأخلاقي على هذه الأعمال– لأن الحكم من اختصاص الداعية الأخلاقي–[1]، فالفنان يتذوق المتعة الانفعالية المثيرة للخيال في كل تجربة بمعزل عن الخير والشر، ذلك لأن الاعتبارات الأخلاقية ببساطة خارجة عن هذا الموضوع.

1- القبح والشر الأخلاقي:

لا ريب أن لأفكارنا الأخلاقية تأثيراً مهماً في أحكامنا الجمالية، لذلك كثيراً ما يُطبق البعض بين القبح والبغض الأخلاقي، إذ أن أحد المفاهيم التي ارتبطت بالقبح هي الصورة المرتبطة بالشر الأخلاقي، "فالوجه البشري القبيح يعني الشفاه الغليظة الوحشية والعينين القاسيتين، ونحن نقول إن مثل هذا الوجه قبيح، لأننا نرى أمامنا التصورات العقلية للشر الأخلاقي"[2]، ولا يمكن أن يكون لدينا عنه أية متعة استطيقية بعد أن أزعجنا الشعور الأخلاقي وضايقنا، فالشعور بالجمال قد دمره الشعور الأخلاقي باللاقيمة.

حيث يعتقد هؤلاء بأن ما ندعوه بالقبح إنما هو موقف يبعث على الألم والكآبة وهو بمثابة استهجان أخلاقي لغياب القيمة الجمالية في موقف ما وهو تقدير أخلاقي أكثر منه جمالي، وهذا ما دفع ستيفن بيبر (Stephen c. pepper) إلى القول: "بأن الحكم على شيء ما بالقبح هو نوع من الاستهجان الأخلاقي وليس حكماً جمالياً"[3].

وهنا يتبادر إلى ذهننا السؤال عن طبيعة العلاقة التي تربط القبح والشرور الأخلاقية؟ وهل يستطيع الفن أن يتخذ من القبح الأخلاقي موضوعاً له ويستخلص منه صوراً فنية جميلة؟

في الإجابة على هذا التساؤل يعتقد بعض الفلاسفة أن الفن بإمكانه أن يتخذ من القبح الأخلاقي مادة لموضوعه فينقله بذلك إلى مجال القيمة الجمالية، فالشخصية ذات الأخلاق الشريرة يستطيع الفنان تصويرها في فنه بشكل قبيح، فيجعلها تملك وجهاً عبوساً وشفاه غليظة وعينين جاحدتان، ونحنا نقول عن مثل هذا الوجه قبيح لأننا نرى أمامنا التصورات العقلية للشر الأخلاقي لتلك الشخصية في الواقع، إلا أن الفنان بإمكانه أن يجعل العمل الذي يحويه هذا الشكل عملاً جميلاً، ذلك أن التعبير الجميل عن الشرور الأخلاقية يكسبها متعة استطيقية كما يرى جورج سانتيانا وإن كانت في ذاتها غير متصفة بالجمال أو الكمال، "فالتجارب الشريرة لا يمكن أن يبعث تأملها على اللذة إلا حينما تضاف إليها ضروباً إيجابية من الجمال... فالموضوعات البشعة والفضيعة تظل شروراً خلقية ما لم تصبح ضروباً من الخير الجمالي"[4].

هنا تطرأ مشكلة كيفية إدخال السعادة على العقل عن طريق إثارة الشقاء فيه؟ أي كيف تثير الإحساسات بالشر والتعبير عن الألم لذة ما؟ وبعبارة أدق: هل في الشر جمال يصلح موضوعاً للفن؟

في الحقيقة أن جميع الموضوعات حتى تلك التي تبعث على النفور من الممكن تأملها بشيء من حب الاستطلاع ومعالجتها معالجة فنية حينما تبرزها ظروف الحياة أمامنا، فإثارة هذه الوظائف الجمالية تخفف من حدة العنف في استجابتنا العاطفية، فالفن لا يبحث عن الموضوعات التراجيدية والعاطفية، وإنما الحياة ذاتها هي التي فرضت هذه الأشياء على انتباهنا واستعانت بالفن لخدمتها حتى يصبح تأمل هذه الأشياء، مادامت محتومة علينا أمراً محتملاً على الأقل بأكبر قدر ممكن.

---

[1]– المرجع السابق نفسه، ص–ص: 538–539.

[2]– ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، مرجع سابق، ص: 26.

[3]– Pepper, Stephen. C: The Basis of Criticism in Arts, Harvard University Press, 1964, p: 58.

[4]– سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، مرجع سابق، ص: 239.

والفن عندما ينشد الصراع ضد الشر الأخلاقي لابد أن يجعله من موضوعاته، وألا سيتحول الفن إلى مجرد موقف سلبي من الحياة بعيداً عن الواقع وما به من شرور، ويمكن أن يعتبر البغض الأخلاقي نوعاً من الجمال عندما يعالج كموضوع مباشر، وليس كوسيلة أو كموضوع بلا قيمة[1].

فنحن نسر بمقولات التراجيدي والكوميدي والجليل وحتى القبيح بالرغم من الشرور التي تحتويها أو تنتمي لها، ونستطيع أن نقول إننا نسر بالجميل على الرغم من شرّيته، وهذا ما عبر عنه جورج سانتيانا بقوله: "فحقيقة الأمر هي ألا تناقض في الفن التراجيدي والكوميدي، أو فيما هو جليل. فلسنا نسر بهذه الأشياء لما توحي إلينا به من شرور، ولكننا نسر بها على الرغم من هذه الشرور"[2].

كما أن لفظ الشر غالباً ما يكون مجرد صفة اصطلاحية، حيث نستطيع أن نسمي الحريق شراً لأنه عادة يتضمن الخسارة والألم، ولكن أذا حدث أننا لا نهتم بالخسارة والألم لأننا لا نشارك فيهما واستمتعنا بألسنة اللهب، ثم ما لبثنا نزعم أن ما يمتعنا هو الشر كنا عندئذ نستخدم لفظة الشر باعتبارها مجرد اصطلاح، ولا نقصد بها أن تكون رمزاً لقيمة نحس بها، فإننا لا نسر بالشر وإنما نسر بالإحساس الواضح المثير وهذا في ذاته خير، وأن كان الموضوع الذي يسببه حادثة قد تكون شراً بالنسبة للآخرين[3]. وهكذا يصبح هذا الشر في نظرنا كأنه لم يكن وذلك لعدم تفكيرنا به وبأننا بأمان عنه، كالطفل الذي يتأمل من البر سفينة تغرق دون أن يفهم ما ينطوي عليه ذلك المنظر من كارثة، فمثل هذا الطفل لن يجرب إلا إحساساً بسيطاً باللذة كما لو كان يتأمل لعبة من اللعب.

ويذهب روزنكز إلى التأكيد على أنه إذا قام الفنان بإحضار القبيح أخلاقياً، أي الشر، إلى "الرؤية الكاملة" فلا يمكن أن يظل بغيضاً تماماً أو خالياً من الجدارة بسبب الكمال الذي ينطوي عليه هذا الاستدعاء، وبهذا يصبح للقبح قيمة جمالية عند تقديمه بشكل صحيح[4]. فهذه رواية مدام بوفاري لبودلير Charles Baudelaire (1821–1867) وصفت بالجمال رغم ما احتوته من رذيلة أخلاقية، الأمر الذي يؤكد أن الشر والرذيلة الأخلاقية يمكن أن تكون جذابة وجميلة إذ تمكن الفنان من معالجتها معالجة بارعة. "لذلك عندما يأخذ الفن القبيح من الناحية الأخلاقية كموضوع له، فإنه يحوله إلى نوع من الجمال"[5].

وعليه يمكن القول أنه طالما يوجد امتزاج في المفاهيم الأخلاقية والجمالية، فمن الصعب تحديد ما إذا كانت هناك علاقة بين القبح والقيم الأخلاقية، كما أنه من الصعب كذلك وضع معايير أخلاقية في تقييم الأعمال الفنية مفقودة، طالما أن الفنان يستطيع أن يجعل القبيح والشر جميلين.

الخاتمة:

يمكن عرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث بالنقاط التالية:

1- أن الفلاسفة يحددون طبيعة العلاقة بين القبح والجمال تبعاً لمذاهبهم الفكرية ورؤيتهم الخاصة للجميل التي تملي عليهم طريقة النظر إلى هذه الإشكالية.

[1]- الصباغ، رمضان: الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، مرجع سابق، ص-ص: 118- 119.

[2]- سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، مرجع سابق، ص: 239.

[3]- الصباغ، رمضان: الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، مرجع سابق، ص: 240.

[4]- https://www.c-scp.org/2017/08/26/karl-rosenkranz-aesthetics-of-ugliness

[5]- Garvin, Lucius: The Problem Of Ugliness In Art, The Philosophical Review, Vol: 57, No: 4, Duke University Press, p: 406.

2- استبعاد البعض لمفهوم القبح من مجال الجمال كان نتيجة للتفكير الفلسفي القائم على الثنائيات (الخير والشر- الصدق والكذب- الجمال والقبح)، والذي أدى إلى الفشل في التمييز بين ما هو قبيح وما هو غير جميل وهما مفهومان متمايزان في الحقيقة.

3- يمثل القبح قيمة استطيقية مثله في ذلك مثل الجميل؛ إذ أن مفهوم الاستطيقا يشتمل على مفهوم القبح إلى جانب مفهوم الجمال، وبالتالي أصبح القبح لا يختلف في شيء عن الجمال كما الجليل والهزلي والمأسوي، لأن لكل منهم قيمته الاستطيقية الخاصة؛ وكل انطباع استاطيقي بما هو كذلك جميل.

4- للفن دور هام في توسيع مجال القيمة الجمالية، وذلك بفضل قدرته على تحويل القبيح إلى جميل استطيقياً، فمسار الفن الحديث عمل على توسيع نطاق الإدراك الحسي الاستطيقي إلى أبعد حد، حيث يشمل الجمال بهذه النظرة كل القيم المندرجة تحته، الأمر الذي أدى إلى هدم كل خط فاصل بين الجمال والقبح.

5- شكل القبح مصدراً جديداً للخلق والإبداع الجمالي، حيث أضحى سِمة جمالية أساسية في الفنون المعاصرة.

6- أن للأفكار الأخلاقية تأثير هام في الأحكام الجمالية، الأمر الذي جعل من الصعب تحديد إذا ما كان هناك علاقة بين القبح والصفات الأخلاقية البغيضة.

7- صعوبة وضع معايير أخلاقية في تقييم الأعمال الفنية، طالما أن الفنان قادر على أن يجعل من القبيح والشرير أخلاقياً شيئاً جميلاً.

معلومات التمويل :
هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

1- إبراهيم، زكريا: فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1966.

2- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، مج11، دار أحياء التراث العربي، بيروت، 1999.

3- أرسطو: فن الشعر، عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1953.

4- إسماعيل، عز الدين: "الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1992.

5- برتلمي، جان: بحث في علم الجمال، تر: أنور عبد العزيز، دار النهضة، مصر، 1970.

6- بلوز، نايف: علم الجمال، مطبوعات جامعة دمشق، 1982.

7- جلبي، شوان عبد الخالق: الشكل والجمال، الخصائص الشكلية قياسها وأثر تغييرها على درجات الاستجابة الجمالية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة التكنولوجية، قسم الهندسة المعمارية، بغداد، 1998.

8- سانتيانا، جورج: الإحساس بالجمال "تخطيط لنظرية في علم الجمال"، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة: زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ت.

9- ستولنيتز، جيروم: النقد الفني- دراسة جمالية-، ترجمة: فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981.

10- ستيس، ولتر. ت: معنى الجمال" نظرية في الاستطيقا"، تر: أمام عبد الفتاح أمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

11- الصباغ، رمضان: الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1998.

12- صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979.

13- عبد المعطي، علي: بوزانكيت -قمة المثالية في إنجلترا-، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، مصر.

14- كانط، إيمانويل: نقد ملكة الحكم، تر: غانم هنا، ط:1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2005.

15- كروتشه، بنديتو: علم الجمال، تر: نزيه الحكيم، مر: بديع الكسم، المطبعة الهاشمية، 1963.

16- لالو، شارل: مبادئ علم الجمال، تر: مصطفى ماهر، مر: يوسف مراد، دار إحياء الكتب العربية، 1952.

17- م، أوفسيانيكوف، ز، سميرنوفا: موجز تاريخ النظريات الجمالية، تر: باسم السقا، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1979.

18- المحمودي، نائلة المنير: جمالية استطيقا القبح في العمل الفني، مجلة الجامعي، عدد: 25، ليبيا، 2017.

19- مدكور، إبراهيم: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1979.

20- نقرش، محمد عمر: جماليات القبح في النص المسرحي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 40، العدد 2، 2013.

ثانياً: المراجع الإنجليزية

1- - Parret, Herman: On The Beautiful And The Ugly, Trans/Form/Açao, Vol: 34, Universidad Estadual Paulist A, Department To De Filosofia, Matilia, Brazil, 2011.

2- Garvin, Lucius: The Problem Of Ugliness In Art, The Philosophical Review, Vol: 57, No: 4, Duke University Press.

3- Kuplen, Mojca: Aesthetic Of Ugliness- A Kantian Perspective, European Society For Aesthetics, Vol: 5, Friborg, Switzerland, 2013.

4- Kuplen, Mojca: Beauty, Ugliness And The Free Play Imagination, An Approach To Kant's Aesthetics, Springer International Publishing, Cam, Switzerland, 2015.

5- Pepper, Stephen. C: The Basis of Criticism in Arts, Harvard University Press, 1964.

6- Peter, Collins: Changing Ideal in Modern Architecture, Faber and Faber, London, 1965.

ثالثاً: المواقع الالكترونية:

1- https://www.c-scp.org/2017/08/26/karl-rosenkranz-aesthetics-of-ugliness.